

## الوحدة الفكرية

الاستاذ سيف الدولة أحمد خليل

رغم ما يبدو عيانا من نجاح قد تحقق، وجماهيرية قد التفت حول الحزب، والى اعلامي قد شع وبان ، الا اننا اهل مكة حين نتفحص شعابنا، نجد ان ما انجزناه حتى الآن لا يعدو الا ان يكون ” نفيرا“ سودانيا بحتا. شيخ قبيلة استنفر أفراد القبيلة ورجالها للقيام بأعمال حصاد. وقد بدا النفير ناجحا شيئا ما بدرجة كادت أن تدفع بنواقص وأساسيات غابت عن بنية هذه القبيلة والتي أثبتتها هنا قائمة مقام حزبنا وحركتنا إلى دائرة النسيان والتناسي.

لو كتب لنا النجاح الآن بدافع روح النفير والنضال إلا أننا حتما سنواجه متي ما وضعنا عصاهما بما نسينا او تناسينا من امر هذه النواقص والاساسيات . النواقص والاساسيات التي احسبها قنابل موقوتة ستفجر كياننا وتهدده بالفناء أو التشرذم في افضل الاحوال.

ولعلي اعود بالناس قليلا او قل كثيرا الي الماضي ..حين كنا في البدايات ..وقد سعينا لمعرفة اسباب عدم استمرارية حركات المستقلين السابقة ولأجل ذلك التقينا لفيما ممن اسسوا هذه الحركات او من انضموا اليها حيناً..رحم الله من رحل منهم وبارك في ايام من بقي..اذكر منهم الدكتور عبد الوهاب عبد الرحيم المبارك، الدكتور فريد عتباني ، الدكتور عثمان بليل ، الدكتور محمد العبيد، الدكتور الطيب حاج عطية، البروفيسور رباح والبروفيسور عون الشريف قاسم..كل هؤلاء اجمعوا ان حركاتهم التي حملت ديباجة الاستقلالية لم يكتب لها النجاح والاستمرارية والتطور الي قوة فاعلة بسبب عدم التأطير التنظيمي بدرجة كبيرة وبدرجة اقل التأطير الفكري.

والناظر الي ما نحن عليه يلحظ ان العلتين اللتان اشرنا اليهما لا زالا يمسان بخناقنا كحركة تصنف من حركات المستقلين، فعلة البناء التنظيمي تتجسد في كون الحركة تمارس نشاطها السياسي من خلال اجسام تنظيمية ثلاثة هي حزب المؤتمر السوداني، الحركة المستقلة، مؤتمر الطلاب المستقلين فضلا عن ضبابية العلاقة التنظيمية بين هذه الاجسام التي لم توطر وتقنن في لوائح او دستور ملزم فان هذه الاجسام تعاني ترهلا تنظيميا لا تبين فيه هيكلية محكمة أو ادوار تنظيمية محددة سواء للهياكل او الافراد الذين يشغلون تلك الهياكل. بل ان الحركة الطلابية بالداخل تعاني من عدم توصيف للعلاقة بينها وبين حزب المؤتمر السوداني رغم ما يبدو من وئام والتحام... بل ان كيمياء العلاقة بين الطالب المنتمي لمؤتمر الطلاب المستقلين غير محددة وفق معادلة تنظيمية معلومة..هل عضوية مؤتمر الطلاب المستقلين تعني تلقائيا العضوية بحزب المؤتمر السوداني..والحركة المستقلة من ناحية أخرى ام ان ذلك لا يقف شرط صحة في الانتماء لمؤتمر الطلاب المستقلين..وان كانت كذلك فما هي العلاقة ومدى الالتزام التنظيمي من ناحية مؤتمر الطلاب المستقلين تجاه الحزب.

اما العلة الثانية فهي علة عدم وجود الوحدة الفكرية وعدم اتساق الخطاب السياسي للأجيال والكيانات التي تعبر عن الحركة ولو اعملنا الاستقراء التاريخي للمجهود الفكري للحركة نجد ان الذين قاموا بالحركة أي في مرحلة التأسيس كانت لهم رؤية تكاد ان تكون واضحة للفكر السياسي فيما يعالج قضايا السياسة

والاجتماع والاقتصاد، الا ان الفيوض الجماهيرية التي التفت بفوران حول الحركة حال اعلانها، قدم رجلا للعمل الحركي وأخر رجلا للمعالجة الفكرية فأنشغل الأباء المؤسسون بالتحشيد والعمل الديماجوجي مرتكزين علي التفاف الطلاب حول ما طرحوا من شعارات جاذبة كاسقاط نظام مايو، المؤتمر خيارا معافي بين اليمين المتزمت واليسار المتطرف، المؤتمر خيار الوسط المعافي، القومية السودانية، المؤتمر ليكون القرار طلابيا صرفا.. والاستقلالية بعيدا عن الحزبية .فانتمى الطلاب للحركة وفقا لفهم كل منهم للشعار الذي استهواه.. فكان هنالك جيل وقف عند اشواقه مقروءة مع ما طرحناه بدءا من شعارات وخط عام.

في العام 1982 تواطأنا علي ما اسميناه الاسس والمرتكزات فجننا تفصيلا لما طرحنا من شعارات وخطوط عامة انتهت الي محاولة لتعريف للاستقلالية ، الوسط الوطني، وبعض من تفصيل لمأسسة الدولة في ديمقراطية تعددية تستوعب التباين الكائن في السودان وتضمن معاورة السلطة سلميا، واجتماعا كان الاعتماد علي الحق والواجب بين الدولة والمواطن دون تمييز جنسي، ديني، عرقي او جهوي، وفي الاقتصاد اجترحنا زيادة قطاع التعاون الشعبي ضمانا لديمقراطية الاقتصاد وامنا علي التنمية المتوازنة ومشاريع الانتاج التخصصي، مع توكيد احترام المعتقدات واعتبارها مكونات حضارية وثقافية رفدت التراث السوداني الذي جعلناه منبعنا لفكرنا دون ادارة ظهرنا للمنتوج المعرفي للانسانية... وقد جاءت الاسس والمرتكزات أنئذ كنتاج حوارات ، أوراق ومنتديات لعدد غير يسير من اعضاء مؤتمرات الطلاب المستقلين..حرصا علي ان يكون فكرنا نتاج حوار جماعي دون ان نركن لمنظر او مفكر او حدا يوردنا موارد الابوية والبابوية ..وكنا نزع حينها اننا ننظيم سياسي يجافي العقائدية والدوغما وينهج منهاجا برجماتيا يستند فيه الي برامج سياسية مرنة تستوعب واقعها أنا ومكانا في اطار موجهاة الأسس الفكرية آنف ذكرها. لتشكل رؤية صادقة لمشكلات الواقع كما هي وليس كما تصورها الايدولوجيا ولم نغلق باب تطوير هذه المرتكزات.

كانت هذه المرحلة الثانية التي اعقبها مرحلة ثلاثة هي مرحلة الاطار الفكري والبرنامج السياسي اللذان انجزا بواسطة لجنة التسيير المناط بها الانتقال بالحركة من حركة طلابية الي حزب جماهيري وقد وسعت لجنة التسيير في الاسس والمرتكزات هونا ما بدعها بعمق فلسفي ونظري، واستنبطت من ذلك برنامجا سياسيا ولعل هذه المرحلة امتدت الي المؤتمر العام الذي اعلنا فيه حزب المؤتمر الوطني وامتدت اكثر الي ما بعيد انتفاضة ابريل المجيدة حيث التقينا بتكوينات وسط أخرى اسهمنا معا في تأسيس الحزب الذي نحن عليه الآن وقد تواطأنا علي ما كان سائدا دون اختلاف يذكر.

وربما جاءت المراحل اللاحقة للمرحلة الثانية من الحراك الفكري موسومة بالمجهود الفردي لا المؤسسي وبدا أنها جارت آلة الخطاب الأيدولوجي المتبنى من قوى اليسار واليمين .وأجمل هذه في المرحلة الرابعة والخامسة.

جاءت المرحلة الرابعة وهي مرحلة مخاض فكري آخر ، ورغم انه تم خارج أطر المؤسسة الحزبية بل اتخذ التنظيم الطلابي مسرعا له وهو مرحلة برنامج التحليل الثقافي الذي افترعه الماجد محمد جلال احمد هاشم وهو بلا شك اضافة قيمة لحراكنا الفكري، ورغم ان الحزب لم يتبينه الا انه ظل متأثرا به حين انضوى تحت لوائه عدد ممن تأثروا بهذا الفكر ايام الطلب فصار جزءا من ادبيات بعضنا، الا انه لم يتبنى

كخطاب رسمي لحزب المؤتمر السوداني ولم يطرحه صاحبه كمنتوج للحزب وانما كطرح خاص به، ولم ينخرط به في الحزب او يودعه لديه كأسهام منه قابل للاخذ والرد بغية تبنيه رسميا بواسطة الحزب، وقد أخذ محمد الاسس والمرتكزات التي طرحت وجعل لها عمقا فلسفيا ونظريا وقد اعمل فيها معارف شتى من سسيولوجيا، سيكلوجيا، انثربلوجيا وفلكلور ان اعتبرناه فرعا معرفيا قائما بذاته وكان نتاج ذلك المجهود ما اسماه محمد منهج التحليل الثقافي الذي جعل ما توطأنا عليه من اسس ومرتكزات كأنها جاءت نتاجا لمنهج تحليل ثقافي وهو بلا مريية مجهود غلب عليه ميسم الرائع جدا محمد جلال.

وجاءت مرحلة اخري ربما كانت هي الخامسة .. وابتدورها بهذه العبارة الظنية لتداخل حراكين في تلك الحقبة وهي مرحلة (أقرأ ..فكر..ناقش) ومرحلة جدلية المركز والهامش.. حملة (اقرأ..فكر..ناقش) كانت جهدا تثقيفيا وبحثيا افاد منه مجترحوه ومن جايلهم، وشكل بعض ممن انتموا للحزب لاحقا تيارا معرفيا انماز عن غيره من تيارات وفي ذات المرحلة كان هنالك مجهودا فكريا آخر افترعه رائع آخر هو الماجد أبكر آدم اسماعيل وهو جدلية المركز والهامش وقد يبدو من وهلته الاولى كتفريع علي الانغام القديمة الاسس والمرتكزات ، منهج التحليل الثقافي وهو كذلك في اطراف منه الا انه اتخذ لما اجترحه عمقا فلسفيا ونظريا نحي منحى دياكتيا وليس لبوس الادلجة هونا ما. الا انه أيضا لم يتبنى كخطاب رسمي لحزب المؤتمر السوداني ولم يطرحه صاحبه كمنتوج للحزب وانما كطرح خاص به، ولم ينخرط به في الحزب او يودعه لديه كأسهام منه قابل للاخذ والرد بغية تبنيه رسميا بواسطة الحزب. وقد وضع هذا الطرح الحزب في معادلة صعبة كحزب يحمل أشواق الهامش في مواجهة المركز دون أن يكون له ثقل في المركز ودون الوفاء بمطلوبات هذا الخطاب.

وما يحمد لخطابي الحذاقيان محمد وابكر انهما رفا الأذب السياسي بمصطلحات ومفهومات أصبحت مدارا لتحليل الازمة السودانية طوال سني الانقاذ.

واخيرا جاءت مرحلة سادسة وهي تمثل حراكا فكريا مقتصرا علي الفصيل الطلابي والذي انتج بحوثا واوراق انتهت الي تبني العلمانية رغم ان العلمانية ليست بعقيدة او مذهبية فكرية، وليست مما يحمد كلا، فالفاشستية ، الماركسية والليبرالية مناهج علمانية فضلا عن عدم وضوحها فهي قد حملت ما حملت من احمال.

كل هذا الحراك غير المؤطر لا يعاب كمنتوج فكري مهما كان مبتسرا ، مبهما أو ناقصا فهو يعبر عن حالة نشوء وتخلق ليس منه بد. الا ان ما طرحناه حتى الآن يمثل جمبازا فكريا بعيدا عن اخطر القضايا واجلها قضية الدين ايا كان، مسيحيا او اسلاميا فمن كل اتخذ الساسة معول هدم لبناننا الوطني اداة وأد لكل توجه قومي. فالمسيحية مقدر عليها لمحدودية تداخلها في حياة الناس وفي شؤون الحكم والسياسة الا ان الاسلام قد احتاز علي قدر مهول من التداخل في حياة الناس في كل شؤونهم في اسرتهم وفرش زوجيتهم وعند قضاء حاجتهم وفي زيجاتهم وميراثهم وقوانينهم، وقد دان به خلق غير معدود من اهل السودان وشكل وجدانهم وعاطفتهم واصبح الوتر الحساس الذي يتلاعب به الساسة ويسند واقع التلاعب هذا قاعدة مكيئة من الجهل والامية الابدعية والحضارية. ونحن كغيرنا لم نجرؤ علي معالجة هذه الاشكالية فتارة قد التفننا عليها بدعاوى التناول الحضاري والثقافي للاسلام ومؤخرا طردناه عن كل شأن سياسي بتبنيينا للعلمانية. ورغم

ان ما انتهجنا من اطروحات ومواقف تصنفنا بعيدا عن الشيوقراطية والدينية. فنحن اول التنظيمات السياسية التي وقفت في وجه اسلمة الدولة ايام الحكم المايوي وقد سبقنا في ذلك كل الاحزاب. وبالتالي لا تستطيع أي جهة ان تزايد علي موقفنا المناوئ للدولة الدينية. الا ان موقفنا هذا لا يبرر هروبنا من المعالجة الفكرية للامر بما كتبنا في الاسس والمرتكزات ومن بعده مشروع الاطار الفكري ولا يبرر استسهالنا للامر والتغابي عن الواقع بتبني العلمانية ضاربين بالحائظ مخاطر نفور الجماهير عنا ومخاطر الاستقطاب المضاد والهوس الديني. نحن لا نريد للحزب ان يصبح مركزا للجدال الفقهي ، الا ان من الضروري معالجة هذا الامر فكريا مثلما نعالج مشاكل الاقتصاد والسياسة فهو عقبة في طريق ممارستنا للسياسة وعقبة في توحيد اهل السودان. ولربما كان الناس في حاجة إلي معالجة فكرية حداثوية لأمر الدين حتى يتماشى مع ما يبتغى.

ولا بد من الوعي بان من الضروري تفكيك المنظومة الدينية السلفية الشمولية التي تشكل نقيضا مركزيا لحركة الحقوق المدنية والديمقراطية وجذرا تحتيا للالزمة السودانية فهي لا تعبر عن إسلام أهل السودان ومنظومتهم الأخلاقية وإنما تتحرك وفق أفق سياسي مصلي لا علاقة له بالفكر، العقيدة والعقلانية ومناجزة هذه المنظومة ليس بالضرورة لمناجزة للإسلام والعروبة وليس كفرا بدوريهما في ميراث السودان الحضاري والثقافي والتاريخي وإنما يأتي ذلك تطهيرا لهما من عناصر الهدم والإقصاء. وعينا بهذه الجزئية يجعلنا نتخذ الموقف السليم لا المواقف التي تدفعنا إليها هذه المنظومة استخذاء وهروبا بطرد الإسلام من حيواتنا أو معاداته حتى يقتاتوا من موقفنا هذا استقطابا مضادا وإثارة للعواطف والنعرات التي لا تضيف إلينا إلا تفكيكا لمجتمعنا أو أن نتبنى خطابا دينيا فنصطف معهم لنزيد الأمر ضعفا على أباله. لذلك لا بد لنا إن نتخذ من الدين موقفا يجافي التبني أو الهروب وإنما المواجه انتقادا لما ينتقد وانتقاء لما ينتقى وندخله مفردة متحاورة مع مفردات ثقافتنا الأخرى ومع منتج المعرفة الإنسانية قاطبة دون مساس بالدولة وشئون الحكم.

وتبقى ملاحظة لا بد من تسجيلها وهي ان كل حراك فكري داخل منظومتنا هذه يصاحبه فقد وانفصاض ما في العضوية فالتأطير الفكري يخوض في التفاصيل وشياطين التفاصيل لا تلجمها العوذ خاصة اننا نشانا كجماهير وسعينا لاستنباط ما يجمعنا وما يعالج مشكلات بلادنا إلا أن هذا لن يجعلنا نتحاشى المضي قدما في حراكنا الفكري. فمطلوبات المرحلة والنجاعة الحزبية تقتضي ذلك.

بناء علي ما تقدم من فذلكة نوصي بالآتي:-

- اضطلاع الحركة المستقلة بوضع هيكله تنظيمية تربط بين حزب المؤتمر السوداني، الحركة المستقلة بالخارج والتنظيم الطلابي بأطر واضحة تحدد مجرى النهر الرئيس والروافد فضلا عن هيكله للحزب تراعي حالة التمدد الجماهيري التي يشهدها مع مراعاة التركيز علي الهامش.
- تناول كل المجهودات الفكرية بالبحث والتمحيص واستصدار ديباجة فكرية موحدة باسم الحركة لتكون معبرا عنها واستصدار كتيبات للتداول والاستقطاب.

-

